ملامح الدراسة البينية عند علماء اللغة العرب

Features of inter-studyamongArablinguists

كريمة مبدوعة1،*

[1] **جامعة خميس مليانة(الجزائر)، karim2015@myahoo.com**

تاريخ الإيداع: 2024/01/15 **تاريخ المراجعة**:2024/06/05 **تاريخ النشر**: 2024/06/30

ملخص:

أثبت علماء العرب قصب السّبق في مجال الدّراسات التّفاعليّة بين مختلف العلوم والتّخصّصات بين مختلف الأجناس والثّقافات، فنجد تفاعلا بين الطّب والأدب، بين الفلسفة والخطابة، بين الميادين العلميّة ومختلف الأجناس الأدبيّة، حتى في مصنفات كبار اللّغويين كـ: "الجاحظ" و "الجرجاني" و"الخليل" و"سيبويه" بنوا أفكارهم وعلومهم على أسس بينيّة محصّنة، لأنهم أدركوا أنه لا يوجد فكر إلا في علاقته بفكر آخر في رؤية تفاعليّة حركيّة. لم يكن التّراث العربي بمعزل عن هذه الإستراتيجيّة، هؤلاء أسهموا في بناء الفكر البيني قديما وأكّدوا أنّ ملتقى التّخصصات ليس اكتشافا حديثا بل كان منذ أقدم العصور في تاريخ العلوم والفنون والآداب، وهو يمثل مرحلة من مراحل الإبداع، وقد حاولنا في هذه الورقة أن نسلّط الضّوء على أهميّة مفهوم البينيّة أوّلا، ثم نركّز على أهم تجلّيات الفكر البيني في التّراث العربي.

الكلمات المفتاحية:البينية، التراث العربي، الجاحظ، الجرجاني، ابن المقفع.

***Abstract**:*

ArabArabscholars have proventheir leadership in the field of interactive studiesbetweenvarious sciences and specializationsbetweendifferent races and cultures. Wefind interaction betweenmedicine and literature, betweenphilosophy and rhetoric, betweenscientificfields and variousliterary genres, even in the works of greatlinguistssuch as: "Al-Jahiz," "Al-Jurjani," and "Al-Jarjani." Al-Khalil and Sibawayh builttheirideas and sciences on solidinterconnectedfoundations, becausetheyrealizedthatthereis no thoughtexcept in itsrelationship to anotherthought in an interactive, kinetic vision. The Arabheritagewas not isolatedfromthisstrategy. Theseancient people contributed to building the interdisciplinarythought and confirmedthat the meeting of specializationsis not a recentdiscovery, but ratherit has existedsinceancient times in the history of sciences, arts and literature, and itrepresents a stage of creativity, and we have triedin thispaper to shed light on The importance of the concept of inter-connectivity first, thenwe focus on the most important manifestations of inter-thought in Arabheritage.

***Keywords**: Al-Biniyah, Arabheritage, Al-Jahiz, Al-Jurjani, Ibn Al-Muqaffa.*

* المؤلف المراسل.

إنّ التّفاعل بين الأفكار والحقول المعرفيّة سمة من سمات العقل البشري، وآية من آيات التّحاور بين العقول العلميّة في عامّة مستويات الحياة الاجتماعيةّ والاقتصاديّة والثّقافيّة، وكذا امتزاج الأعراف والأجناس، هذه خاصيّة الفكر البيني خاصة التّقاطع بين العلوم وافتراض المفاهيم المعرفيّة التي تعدّ أساسا من أسس تاريخ الفكر في العلوم الإنسانيّة، تولّد عنه حقل الدّراسات التّفاعليّة والتّكامل المعرفي، هذا التّخصّص الذي أثبت فاعليته في تجاوز العديد من الإشكالات في ميادين العلوم أحاديّة التّخصّص، والغاية منه تحقيق التّكامل بينها ما أمكنها ذلك، والوصول إلى أكبر عدد من المخرجات العالية الجودة لتحصيل التّفاعل وتجاوز التّخصّصات المغلقة، مما أثبت فاعليتها وأهميّتها ومكانتها القيّمة، ونقصد البينية في كسر حواجز المنع بين مجالات العلم، استدعت هذه الأهميّة لهذا النّوع من العلم التّوجّه من العلم إليه كإستراتيجيّة بديلة أحسنت ربط العلوم.

لم يكن التّراث العربي بمعزل عن هذه الإستراتيجيّة، وقد أثبت علماء العرب قصب السّبق في مجال الدّراسات التّفاعليّة بين مختلف العلوم والتّخصّصات بين مختلف الأجناس والثّقافات، فنجد تفاعلا بين الطّب والأدب، بين الفلسفة والخطابة، بين الميادين العلميّة ومختلف الأجناس الأدبيّة، حتى في مصنفات كبار اللّغويين كـ: "الجاحظ" و"الجرجاني" و"الخليل" و"سيبويه" فقد بنوا أفكارهم وعلومهم على أسس بينيّة محضة، لأنهم أدركوا أنه لا يوجد فكر إلا في علاقته بفكر آخر في رؤية تفاعليّة حركيّة، هؤلاء أسهموا في بناء الفكر البيني قديما وأكّدوا أنّ ملتقى التّخصصات ليس اكتشافا حديثا بل كان منذ أقدم العصور في تاريخ العلوم والفنون والآداب، وهو يمثل مرحلة من مراحل الإبداع.

1- الدّراسة البينية؛ الماهية والمفهوم:

تعد الدّراسة البينية بالغة الأهمية في المنهجيات والأنظمة المعاصرة، فهي إسهام معرفي ورؤية إبداعية تعتمد على حوار المناهج وتفاعل العلوم بمختلفها.

أ- مفهوم الدّراسة البينية:

تعرف الدّراسة البينية على أنها: "الوقائع المرجعية والترابطات الداخلية المتشكّلة داخل تخصص واحد أو حقل معرفي ما، وهذا ما يسمح بإقامة علاقة بين عناصر التخصص وبين تخصّصات مختلفة ومتمايزة"[1] مما يعني بناء تواصل معرفي بين مختلف التخصّصات حتى المتباينة.

لقد عرف هذا المصطلح منذ منتصف القرن العشرين في الحضارة الغربية وهو من المصطلحات الناشئة في الحضارة العربية، وهذه الكلمة Interdiciplinary مركّب اسمي مكوّن من مقطعين "Inter" ويعني "بين" Diciplin ويعني حقلا معيّنا من الدّراسة، ومنه وفي تعريفات أصحاب المجال فإن البينية هي عملية تقوم على الجمع بين كفاءات أو أفكار آتية من ميادين علمية أو فكرية مختلفة لتحقيق هدف مشترك، وذلك بالتوسل بمقاربات مختلفة لمواجهة مسألة بذاتها أو مشكل بذاته"[2] وهو يعرف بتداخل أو تكامل المعارف.

إنّ الدّراسة البينية تجمع بين النظرة التخصصية الدقيقة والنظرة الموسوعية الشاملة وتؤمن بالتكامل المعرفي.

كما تعرف البينية على أنها منهج يساهم في تبادل الخبرات البحثية والاستفادة من الخلفيات الفكرية والمناهج المختلفة بين الباحثين وإدماجها في إطار مفاهيمي ومنهجي شامل يساعد على توسيع إطار دراسة

الظواهر والمشكلات وتقديم فهم أفضل لها، الأمر الذي يؤدي إلى الخروج بنتائج دقيقة، وتقديم حلول نافعة قابلة للتطبيق.[3] وقد عرّفها بعض العلماء على النحو الآتي:

عرّفت الجمعية الوطنية الأمريكية الدّراسات البينية بأنها أسلوب البحث من قبل الفرد أو الأفراد للجمع بين المعلومات والبيانات والتقنيات والأدوات والمفاهيم، أو نظريات من اثنين أو أكثر من التّخصصات أو الاتجاهات، وذلك بغرض تعزيز الفهم أو حل المشاكل التي هي خارجة عن نطاق المجال العلمي والبحثي الواحد".

كما عرفت الدّراسات البينية على أنها: "دراسات تعتمد على حقلين أو أكثر من حقول المعرفة الرائدة، أو العملية التي يتم بموجبها الإجابة عن بعض الأسئلة، أو حل بعض المشاكل أو معالجة موضوع واسع جدا، أو معقّد جدا، يصعب التعامل معها بشكل كاف عن طريق تخصص واحد".[4] كما عرفت الدّراسات البينية على أنها: "نوع من التخصصات الناتجة عن حدوث تفاعل بين تخصص أو أكثر مرتبطين أو غير مرتبطين، أو أنها العلوم والدّراسات التي تبحث في إدراك العلاقات بين فروع العلوم والمعرفة على أساس مبدأ وحدة العلوم وتكاملها للوصول إلى مفاهيم مشتركة بين مختلف العلوم والتّخصصات".[5]

إنّ المتأمل في التعريفات السابقة يلاحظ أنّ هذه الأخيرة تتمحور حول التركيز على المشكلات أو الأسئلة المعقّدة جدا، والتي لا يمكن لاتجاه واحد من الفكر أن يقدّم حلولا لها ومن ثم يقدّم أفكارا ابتكارية يضعها في فكرة جامعة، وذلك بالاستفادة من النظريات المختلفة للعلوم المتخصّصة ودمج تلك العلوم بطريقة منضبطة لتكوّن علوما جديدة أكثر شمولا وغالبا ما تكون أكثر دقّة.

وحسب ما أورده المختصون فإن أي عملية بحثية يقوم بها فريق من الباحثين مختلفي الانتماءات المعرفية بتأسيس مشروع علمي يصح القول ببينيته ، كما أنّ امتلاك الباحث الواحد لثقافة معرفية متعددة تنتج له تناول الموضوع الواحد بتخصصات مختلفة هو سلوك يصح انتماؤه أيضا للدّراسات البينية.

2- ظهور البينية وتاريخ نشأتها:

ظهرت الدّراسات البينية مع مطلع العشرينات من القرن الماضي[6]، وإن كانت بعض الإرهاصات الأولى لهذا العلم في عام 1930م.

إن المحاولات الأولى لهذا العلم من قبل روّاده الذين حاولوا تأسيس فكرة البينية، كان بظهور المصطلح أوّل مرّة على يد عالِم الاجتماع "لويس كرتز" "Louis kirtez"[7]، أما فكرة الدّراسة البينية فقد ظهرت كاتّجاه نظري خلال الستينيات والسبعينيات في عدد من فروع المعرفة كالفلسفة، علم اللغة ، تاريخ الفكر والأنثروبولوجيا، وقد لعبت المدرسة الأمريكية دورا مهما في هذا المجال، ذلك للنهوض بهذا العلم والتأكيد على وحدة المعرفة وأهمية التكامل بين التخصصات فيما أطلق عليه اصطلاح Interdiciplinary . وهي المرحلة التي تلت مرحلتي الموسوعية والتخصصية، وذلك تحت قيادة عدد من العلماء الاجتماعيين مثل تشينز، وديوي، وميكلجور.

3- أهمية الدّراسات البينية:

تتجلّى أهمية الدّراسات البينية فيما يلي:

- المستوى المعرفي العلمي:

إنّ البينية ليست ترفا معرفيا وإنما هي حاجة متأكدة يقتضيها البحث وخاصة في الموضوعات المركّبة والمعقّدة التي تتطلّب نظرا من زوايا متعدّدة وطرائف مختلفة، وهي لا تقتصر على تمكين البحث من إمكانات

ورؤى لا يقدر عليها التخصص بمفرده، وإنما تقدم الدّعم لهذا التخصص من خلال توفير إطار للنقد الخارجي تناقش فيه الآراء، وتختبر الفرضيات الخاصة بكل تخصص.

إنّ هذا الحوار النقدي يمثل إضافة للتخصص الواحد لا يتوفّر له عندما يكون منعزلا أو منغلقا.[8]

ورغم أنّ التقاليد الجامعية مازالت تكبح العمل البحثي البيني من خلال أقسامها العلمية ومجالاتها المتخصصة وأطروحاتها وأساليب التوظيف والانتداب، وهي بذلك تعيد إنتاج نفسها في إطار التخصص المفردة، فإن نمو البحث البيني والمخابر ومراكز البحث البينية والمؤتمرات والأبحاث الجماعية المتّجهة إلى إفادة التخصصات بعضها من بعض يسمح بالقول إنّ التّكامل بين المعارف و العلوم المفردة يتطوّر بشكل متوازٍ، وإنّ العمل البيني صار حقيقة قائمة في واقع البحث العلمي في كثير من البلدان.

ـ المستوى الاقتصادي والاجتماعي:

وفيه يكون الحديث عن العلوم التطبيقية والأبحاث التطبيقية، والمشاريع البحثية ذات الأهداف وغيرها من المصطلحات التي تجتمع على انتقال العلوم من النظري إلى التطبيقي والعلمي، ومن المعرفة العلمية الخالصة أو المعرفة لذاتها إلى معرفة منفتحة على المجتمع والإنسان معرفة توظّف لحل مشاكل قائمة في الواقع البشري أو الوطني أو الإقليمي أو العالمي.

إنّ تطوّر حياة الإنسان الحديث وتعقّدها وتضاعف حاجاته في الإنتاج والنقل والتواصل والتعليم والسكن والصحة وغيرها من مجالات الحياة، ونمو وعيه الصحي والبيئي والغذائي والاجتماعي والجغرافي، كل ذلك كان سببا وعاملا في إسراع وتيرة الاستفادة العملية والتطبيقية من ثمار العملية العلمية.

إنّ الكثير من المشاكل التي تحتاج المجتمعات إلى حلّها منفردة أو مجتمعة كما يذكر المختصون هي مشاكل معقّدة مركّبة متعددة الأوجه، وعليه فهي تقتضي اجتماع خبرات علمية وتقنية من تخصصات متعدّدة، لتكتسب بذلك الدراسة البينية أهمية كبيرة باستمرار في هذا المجال، حيث تتيح الدراسة هذه لمختلف المشاريع والتخصصات حوارا و تفاعلا و تأثيرا متبادلا في الرؤى والمناهج، وتتجلّى أهميتها في أنّ بعض التخصّصات اليوم لا تسمى و لا يُشار إليها إلا بصيغة الجمع، وذلك لجمعها بين عدد من التخصصات؛ نذكر على سبيل المثال: العلوم الصحية، علوم الاتصال، العلوم العرفانية[9]، إنّ هذه التّخصصات تتّخذ البينية أساسا لأعملها البحثية والتطبيقية سواء من جهة تعالق العلوم الطبيعية والإنسانية، أو من جهة العلاقة الجدلية بين الحاجة الاجتماعية والمعرفة العلمية.

ـ مستوى انعكاس البحث العلمي على ذاته:

إن المعارف المجزّأة المتناثرة بين الدّوائر المتباعدة لا تقدّم معرفة شاملة متماسكة من شأنها أن تبرز حقائق الظواهر في ترابطها ووحدتها، ومع الإقرار بما قدّمته البحوث الحديثة من خدمات جليلة للبشرية، فإنّ الدّراسة البينية نبّهت إلى أنّ المعرفة التكنولوجية والعلمية قد توظّف توظيفا مضادا لحياة الإنسان ومحيطه وخاصة في المجال الاقتصادي الذي لا يؤمن إلا بمنطق الربح وربح الوقت.

من خلال هذا العرض حول أهمية البينية فإن أهميتها على اختلاف أصنافها ومستويات منجزها البحثي فهي تتأكد من خلال المستويات الثلاثة المذكورة وهي المستوى المعرفي العلمي والمستوى الاقتصادي والاجتماعي ومستوى انعكاس البحث العلمي على ذاته.

4- إيجابيات الدّراسات البينية:

تتمثل إيجابيات هذه الدّراسة فيمل يلي:

- تنشيط المعرفة المحتملة بعكس الدّراسات المتخصّصة التي رأى بعض العلماء أنّ استخدام أسلوبها في بقاع المعرفة يحول دون تنشيط المعارف والعلوم في الحياة الواقعية.[10]

- إظهار القواسم الابستمولوجية المشتركة، وكيف تندمج أفرع المعرفة المختلفة في بناء الإمكانيات المعرفية المعقّدة.

- تنبيه القدرة عند الباحث على استخدام معايير أكثر من علم واحد لحل المشاكل المعقّدة، بالإضافة إلى إكساب الباحث القدرة على التنظيم الذاتي لحل المشكلة التي تواجهه.[11]

- فرضت المعلوماتية والعولمة على العالم المعاصر متغيّرات وتوجّهات عديدة، منها ضرورة الاهتمام بوحدة المعرفة وأهمية تكامل الجهود لتحقيق شمولية الرؤى المستقبلية اللازمة لمواجهة التحدّيات والمشكلات، وقد أوجب ذلك ضرورة تطوير نظم التعليم على كافة مستوياته ومراحله، وذلك سعيا لتوحيد المعرفة والاقتصاد فيها، بإحداث المزج والتكامل بين التخصصات.[12]

- تساعد على فتح مجالات عديدة للبحث والدراسة، بالإضافة إلى اعتمادها على استخدام خبرات مختلفة لاستكشاف نفس القضايا.

- تتميّز الدّراسة البينية بعدم معاناتها من مشكلات عدم التوازن بين أطراف الدّراسة، أو أهمية أحد الأطراف العلمية بفكرة كما هو الحال عند الدّراسات متعدّدة التخصّص، التي تلزم في كثير من الأحيان وجود منسق يجمع بين أطراف الدّراسة ويكون قادرا على الحفاظ على أهداف المجموعة العلمية.[13]

5- أهداف الدّراسات البينية:

تتجلّى أهم الأهداف التي ترمي إليها البينية فيما يلي:

أ- دمج المعرفة:

إنّ الهدف الأساسي للبنية هو و معنى ذلك ربط وتكامل المدارس الفكرية والمهنية والتقنية للوصول إلى مخرجات ذات جودة عالية مبنية على العلوم الأساسية والطبيعية، وصياغة برامج تجمع بين عدد من التخصصات، وفهم أعمق وأشمل لعدد من المشكلات المعقّدة.

ب- تحقيق التكامل: إنّ من بين أهم أهداف البنية تحقيق وحدة المعرفة المتكاملة والأكثر شمولا، أي تحقيق إدراك ومواجهة الاختلافات بين التخصصات المختلفة ذات رؤية مختلفة وهو دور رئيسي للبينية من خلال التكامل بين طرق التفكير لتخصّصات متعدّدة ومختلفة.

ويتجلّى ذلك على سبيل المثال في برامج التأهيل والتعليم والبحث العلمي.

ج - تطوير القدرة على عرض القضايا ومزج المعلومات والإبداع في طرق التفكير من وجهات نظر متعدّدة لتحدّي الافتراضات التي بنيت عليها، وتعميق فهمها، مع الأخذ في الاعتبار استخدام أساليب البحث والتحقيق من التخصصات المتنوعة لتحديد المشاكل والحلول لبحوث خارج النطاق الواحد.

د- إنتاج معارف جديدة:

تساعد الدّراسة البينية الجامعات على مواكبة التطوّر الجاري في الكثير من التّخصصات عالميا، بما يلبّي المتطلّبات الديناميكية المستمرة للمجتمعات الحديثة التي تتطلّب درجات أعلى من التّخصص، فالعديد من المشاكل المعقّدة التي تهم المجتمع لا يمكن أن تحلّ بشكل كافٍ عن طريق تخصص واحد معيّن، وإنما تتطلّب دراسة بينية ذات رؤى واضحة تعتمد على الطّرق الحديثة وعلى باحثين مؤهلين، ذلك لهدف واحد وهو إنتاج معرفة جديدة فرضتها إجراءات الدّراسة البينية.

ثانيا: تجلّيات البينية في التراث الأدبي العربي:

يتقاطع الأدب مع العلوم الأخرى، كالتّرجمة الذّاتيّة وتكاملها مع الطّب البشري، والقصّة القصيرة جدا مع فن التّصوير والرّسم وغيره من الملتقيات المعرفيّة، هذا التّكامل البيني بين الأدب وغيره برز عند علماء العربي بواقع من الشّموليّة والتّفاعل الذي لا يمكن فيه فصل الأدب عن العلوم الأخرى، ودمج المعرفة والإبداع في التّفكير تحقيق التّكامل وهو من أهم أهداف البينية.

1 ـ تجليات البينية بين الأدب و الطب:

ما هو ملاحظ من خلال المصنّفات العربيّة هو الإسهام الفعّالة للعرب في مجال تصنيفهم للعلوم كفروع لشجرة واحدة ترسل ثمرتها عبر تطوّراتها المختلفة؛ ك "**ابن خلدون(ت808ه)**" و"**ابن حزم(ت456)**" و"**ابن النّديم(ت384ه)**"[14] و"**الكندي" (260 ه)**، و"**الباقلاني'(ت403ه)**"، وقد أثّر "**الفارابي" (ت399ه)** في جميع التّصانيف التي جاءت من بعده، وتجلّت فكرة البينيّة في عمله.

ما يهمّنا في إسهامات علماء العرب في التّكامل بين العلوم ما تجلّى في قضيّة التّفاعل بين الأدب والطّب وتراثهم من خلال ما كتبه بعض الأطباء من مقامات تجمع بين المنفعة الطّبية والتّرفيه الأدبي.

ما يمكن أن نشير إليه في هذا المقام تجلّيات البينية عند العرب وخطبائهم، ومعنى ذلك ما قام به هؤلاء من صناعة الأدب وصناعة الطّب، هذا المفهوم البيني يمثّله ابن رشد في كتابه تلخيص الخطابة بين صناعة الخطابة وصناعة الطب، إنه تفاعل بين جنس أدبي وعلم الطّب، إنه فكر بيّن فيه صاحبه أنّ الخطابة ليست الإقناع بل محاولة الإقناع وحمل السّامع على الاقتناع، فهي صناعة روحانيّة تتكلّف الإقناع في جميع الأمور، قال "**ابن رشد(595 ه/1198 م)**": "ليس هناك عائق من خارج، بل عملها هو أن تعرف جميع المقنّعات في الشّيء وتأتي بها في ذلك الشّيء، وإن لم يقع إقناع والحال في هذا المعنى كالحال في صناعات كثيرة؛ مثل صناعة الطّب؛ فإنه ليس الفعل فيها الإبراء ولابد، بل إنّ فعلها أن تبلغ من ذلك غاية الشّيء الممكن فعله في ذلك الشّيء المقصود بالإبراء، ولذلك قد يشارك في أفعال هذه الصّنائع من ليس من أهلها مثل أن يبرئ من ليس بطيّب ويقنع من ليس بخطيب[15] ، فالنّظرة البينيّة في هذه الفقرة جزء رئيسي من تعريف العلم، فالخطابة والطّب يشتركان في كونهما فَنَيْ الممكن من الأشياء، فالطّبيب يحاول الإبراء وتوفير ظروف الشّفاء بعد الله عزّ وجل، وقد ينفع الدّواء جسما ولا ينفع جسما آخر، نظرا إلى اختلاف الأجسام في تقبّل العلاج، وقد يهتدي إلى العلّة وقد لا يهتدي، وكذلك الخطيب قد يقنع بحجّة أحد الحاضرين وقد لا يقتنع بها آخر في المقام نفسه أو في مقام آخر، فالطّب والخطابة من هذه الجهة فنّان يحاولان المعالجة والإبراء.

إنّ الخطابة تعالج النّفوس المريضة والأرواح القلقة في الأغراض الوعظيّة والإرشاديّة والتّعليميّة، وتعالج النّفوس المتدابرة والمتصارعة والمتباغضة في الفضاء العمومي، وخير جنس خطابي يحقّق هذا الغرض خطابة

إصلاح ذات البين بين العشائر و القبائل؛ مثل: "هرم بن سنان" في الجاهليّة أو "الأحنف بن قيس" في العصر الأموي، ولهذا تجد فيها الإطالة والتّكرار والإعادة، حيث يتطلّب الإصلاح ترويض النّفوس وتطهيرها وتصغير الخلاف وتعظيم التّفاهم والتّلاقي.

إنّ عمل الخطيب يشبه إلى حدّ بعيد عمل الطّبيب النّفسي أو حتى الطّبيب العضوي الذي يداوي الجراح الماديّة؛ قال "**ابن قتيبه "(ت276 هـ)**: " ليس يجوز لمن قام مقاما في تخصيص على حرب أو صلح بين العشائر أن يقلّل الكلام ويختصره ولا لمن كتب كتابا إلى عامة من فتح أو اصلاح أن يوجز... أما بعد فإني أراك تقدّم رجلا وتؤخّر أخرى، فاعتمد أيّهما شئت والسّلام"[16]، فالإصلاح بين الجماعات في خطابة ما طبيّة ترويضيّة إقناعيّة يقوم فيها الخطيب بوظيفة الطّبيب النّفسي والحكيم الاجتماعي حملا على الإقناع بترك التّباغض والحثّ على التّسامح، تهدف إلى مداواة الجراح والتّأليف بين المتخاطبين، ومن ثمّ جاء الإطناب عملا قوليا علاجيا تطهيريا شبيها بالصّناعة الطّبية.

إنّ هذه العلاقة بين هذين العلمين علم الطّب والخطابة تجلّت في موضوعات الكتابة البينيّة في البيئة العربيّة الإسلاميّة وبالتّحديد التّقاطع بين الطّب والآداب وتشعّب مذاهبهن وهو بين الصّلة التي بين الدّراسات اللغويّة والأدبيّة والدّراسات الطّبيّة والعلميّة عموما، وقد بلغت هذه العلاقة بين الأدب والطّب مبلغا واسعا، حيث كتب بعض الأطباء مقامات تجمع بين المنفعة الطّيبة والتّسلية والتّرفيه الأدبي، وفي هذا المقام يذكر الباحثون كتابا **لابْنِ بُطْلَان(444هـ)** وهو كتاب "دعوة الأطباء"؛ وهو نموذج فني جعله صاحبه في شكل رسالة أدبيّة ذات بنية سرديّة تقصّ حكاية "طفيلي قادم من بغداد، فالتقى بسوق العطّارين على وجه الصدفة شخصا استلطفه وشكا له كساد صناعة الطّب بتلك المدينة، وحين سأل الرّجل الشّيخ المسافر عن سبب سفره علِم منه انه جاء بحثا عن دواء لمعدته، فاطمأنّ وهو البخيل، إلى أنه يستطيع استضافته في بيته دون أن يخشى مصاريف الضّيافة، واستقرّ بهما المقام في منزل الشّيخ الذي لاحظ أنّ الضّيف أكول، واغترّ به من جديد أنّ معدته لا تقوى على الشّراب، فقرّر جمع أصدقائه الأطباء من ذوي التّخصّصات المتنوّعة في مجلس شراب ينسون به مشاكلهم، ودار في ذلك المجلس حديث في قضايا الطّب مع جهلة بها".[17]

هي رسالة أثبت فيها صاحبها هذه الصّلة بين الطّب والأدب وهي تفاعل تخييلي بينهما في هذا المقام، وهي ثمرة من ثمار التّوازن بين الممتع والمفيد وبين النّافع والجميل في تصوّر الإنسان العربي القديم للعلم، وهي صلة بينيّة يلتقي فيها علم الطّب والخطابة الشّفهيّة والكتابيّة، فحقل التّداوي بالخطابة كان موضوعا من موضوعات الكتابة البينيّة في الثّقافة العربيّة.

2 ـ تجلّيات البينيّة بين الأدب والفلسفة:

تظهر صلة الأدب بالفلسفة في الثّقافة العربيّة بصورة واضحة، في استخلاص ما يقدّمه الأثر الأدبي من أفكار وأطروحات جديدة، وأثر هذه الأشكال الأدبيّة في بناء المعرفة المجرّدة عامّة، وهي مسألة نظريّة شكّلت الأسس المبدئيّة لهذا النّوع من الدّراسة البينيّة.

إنّ الحديث عن الصّلة البينيّة للفلسفة والأدب هو حديث عن العلاقة بين النّظرية الأدبيّة والنّظرية المعرفيّة العامّة، فلا يمكن للنّظريّة الأدبيّة أن تتأسس خارج نظام المعرفة، فكل نظام أدبي بصفته نظام تواصل يخضع لتصوّر معرفي تصنّف بمقتضاه الأجناس الأدبيّة.

إنّ النّظريات الأدبيّة المختلفة ذات مرجعيّة فكريّة وثقافيّة مستمدّة من قيمة وثقافة ورؤى مجتمع ما، بل إنّ لغة هذه الثّقافة هي التي تؤثّر في هذه النّظريّة في نضجها وفي تحجّرها أو انغلاقها أو مختلف التّأثيرات الثّقافيّة لهذه اللّغة.

إنّ أدب الخطاب لا يمكن أن يفهم إذا عُزِل عن لغة التّواصل في الثّقافة المنتجة له، لأن اللغة غايتها التّواصل، ونظام التّواصل هو تمثيل لنظريّة الأدب، ويعدّ الشّعر خير دليل في تجلّيات البنية بين الفلسفة والأدب، على اعتباره أي الشّعر لحظة فارقة في حياة اللغة واللغة فكر، وفي التّراث العربي تجسّدت فكرة الأدب وعلاقته بحب الحكمة في صدارة الأسس التي بُنيت عليها أسس النّظرية الأدبيّة.

لقد ترجم "ابن المقفّع" "كليلة ودمنة" لتكون هذه التّرجمة إقرارا بين التّفاعل بين الشّعر والفلسفة أو بين الإبداع والعقل وبين اللغة والفكر.

يعتبر كتاب "كليلة ودمنة" كحلقة وصل بين الحكماء وعامّة النّاس، وهو شكل من أشكال الأدب وجوهر الحكمة؛ يقول "ابن المقفّع": وصنعه علماء الهند أدخلوا فيه أبلغ ما وجدوا من القول في النّمو الذي أرادوا، ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم".

إنّ إيصال فكرة معيّنة يقتضي إلى إنزال هذه الفكرة بمنزلة المجاز ليفهمها عامّة النّاس، وكان كتاب "كليلة ودمنة" تجسيدا لهذه المنزلة، وهو تزاوج بين الأدب والحكمة، وهو قراءة بينيّة لمن بحث في تجلّياتها في التّراث العربي للأدب والفلسفة، حاول صاحب الكتاب أي "ابن المقفّع" ترويض العقل على السلوك الاجتماعي النّاضج.

3ـ تجليات الفكر البيني عند اللغويين العرب:

نحاول في هذا العنصر الإشارة الى عالمين من كبار علماء اللغة و هما الجاحظ و عبد القاهر الجرجاني لنثبت قصب السبق للفكر البيني في التراث العربي من قبل علماء اللغة العربية.

3 ـ 1 تجليات الفكر البيني عند الجاحظ:

أسهم الجاحظ وبشكل كبير في إنشاء المفهوم البيني، حيث عرف بالتّنوّع المعرفي أو التّنوّع الموسوعي، فكتاب الحيوان خير دليل، حيث وضع "الجاحظ(ت255ه) أسس تكامل العلوم ومعارفها بالرّجوع إلى الطّبيعة والثّقافة، فالنّشاط الذّهني البشري هو نشاط ذهني بيني، وحرص على المعنى الذي هو خلاصة الأصوات الثّقافيّة وعناصر الإنسانيات الموروثة في كتابة الموضوعات الأدبيّة.

إنّ العلوم القديمة والتّراكم المعرفي والتّنوّع الفكري في البصرة أثمر نوعا ما من الكتابة الأدبيّة ودلالاتها البينيّة، فنجد الجاحظ يعرّفها: "إنّ جمع الكتب ودراستها ومعلوم أنّ طول دراستها أنّما هو تصفّح عقول العالمين والعلم بأخلاق النبيّين وذوي الحكمة من الماضيين والباقين في جميع الأمم وكتب أهل الملل".[18].

إنّ تجلّيات الفكر البيني بدت واضحة في كتاب الحيوان نستخلص هذا من قوله: "هذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا وإسلاميا جماعيا فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع بين معرفة السّماع وعلم التّجربة".[19]

إنّ الدّارس لمقدّمة الحيوان يلمس هذا الفكر البيني عند "**الجاحظ**"(ت 255هـ)، وهو تعدّد ثقافي وتكامل معرفي بين عالميّة الفكر والأدب والتّفاعل للأشكال الأدبيّة مع عامّة الأذواق وآفاق التّلقّي وردود الأفعال في مدينة البصرة في القرن الثاني الهجري.

تعد الكتابة مجمع المعارف الكونية و ملتقى الثقافات في تصور الجاحظ وهي معرفة منفتحة على الزمان و المكان، منفتحة على حركة الزمان التي لا تقصي لا الحاضر و لا الماضي. و هي نظرة بينية محضة تجلت في كتابات الجاحظ و أرائه في معالجة القضايا الاجتماعية و العقائدية والأخلاقية و غيرها من القضايا التي تعرض لحياة الإنسان. هذه الكتابات التي غلب عليها طابع الجمع بين العلوم، طابع التراكم المعرفي بين العلوم العقلية و النقلية وما رواه القدماء بل والعلوم التّجريبيّة وبين المعارف الطّبيعيّة والاجتماعيّة والنّفسيّة.

إنّ الفكر البيني هو ميزة من ميزات العقل البشري في مراحل ازدهار الدّول والحضارات، والعصر الذي ميّز حياة "الجاحظ" هو عصر ازدهار الحضارة العربيّة الإسلاميّة في مراحل توسّعها وانتشار الإسلام في بقاع العالم، فكان أن تلاقت مختلف المعارف والتّخصّصات والعلوم تحت غطاء الدّولة الإسلاميّة، مما نتج عنه هذا التّخصص العابر للعالم، هذا التّخصص المجموع من تخصّصات عديدة بالضّرورة هو فكر بيني يتم بالتّلاقح بين التّجارب والمعارف، والتّبادل والتّرجمة عن الثّقافات الأخرى، هو تراكم معرفي من خاصيّة الثقافات ، قم إنّ معظم الحضارات الفانية والحضارات في طريق صعودها ورقيّها يتم حدوث مفارقة بينهما، هذه المثاقفة وهذا الأخذ والنّقل للقيام بدور حضاري مميّز في صميم البينيّة ومفهومها.

نجد "الجاحظ" يعبّر عن هذه المثاقفة بين الحضارة العربيّة الإسلاميّة وما سبقها من ثقافات بقوله: "وينبغي لمن بعدنا أن يكون سبيله كسبيل من كان قبلنا فينا على أنّا قد وجدنا من العبرة أكثر ممّا وجدوا، كما أنّ بعدنا يجد من العبرة أكثر ممّا وجدنا"[20] من خلال قول الجاحظ علينا أن لا ننظر للحاضر بمعزل عن الماضي أو المستقبل، فالتاريخ عندما يتراكم من معارف نظريّة وعلميّة لصالح ما ينفع البشريّة لأن التّاريخ عبارة عن سلسلة من المراحل تتضافر فيها عقول النّاس لإنتاج معارف وخبرات معرفيّة مختلفة ومتّصلة بعضها مع بعض ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا، مما يشكل كمّا معرفيا عابرا لكل القارّات والدّول، وبالفعل فقد برهن "الجاحظ" من خلال كتاباته أنه من كبار الفكر البيني، وأنّ تجلّيات البينيّة في فكرة بصورة واضحة بالمزاوجة والمثاقفة بين تراكمات معارف كل الأمم، والتّفاعل بين الأفكار والحقول المعرفيّة.

2.3- تجليات الفكر البيني عند عبد القادر الجرجاني(-1009 م ـ 1078 هـ)

هو إمام البلاغة العربيّة؛ صاحب النّظرة الشّموليّة للحدث البلاغي، رائد مفهوم معنى المعنى، هذا المفهوم الذي بناه على أسس بينيّة، حيث ذهب إلى أنّ المعنى أمر مشترك وبيني تتقاسمه جميع الشّعوب أو بالتّفاعل بين الثّقافات في مسألة المجاز، لأنها تشترك في التّصوّرات العالميّة للأشياء، إذا حلّلنا كلمة "أسد" معناها في جميع المعارف هو رمز الشّجاعة، انظر هذا الفكر البيني في معنى الكلمة عبر كل اللّغات.

إنّ مقدّمة كتاب "الجرجاني" تجسّد الفكر البيني عنده بالمثاقفة بين اللّغات، فيقول: "رأيت أسدا" تريد وصف رجل بالشّجاعة وتشبيهه بالأسد على المبالغة أمر يستوي فيه العربي والأعجمي".[21]

إنّ أمر تشبيه الأسد بالشّجاعة نتج من الخوف من هذا الحيوان، فارتبط معناه بهذه الصّفة عبر كل اللّغات وفي جميع الثّقافات وفي كل الأجيال، وهو بهذا يتجاوز حدود الثّقافة العربيّة.

وفي موضع آخر يعتبر "**الجرجاني**(ت -1009م1078هـ)" في أسراره أنّ اللّغة لا تتداول بين المتخاطبين من خلال ألفاظها؛ بل تتداول من خلال أنساقها الخطابيّة، وهي مرتبطة بذات المتكلّم، فالكلام عمل نفسي متّصل بالمتكلّم وليس له دلالة في ذاته، بل في تحويله إلى قول أو خطاب، ولمّا كان كل خطاب هو عمل قولي حواري يتقاطع فيه البعد الاجتماعي والعامل النّفسي والصّوت الثّقافي والأفق العلمي، إنّما أردنا أن نقول أنّ فكرة "الجرجاني" حول اللّغة هي فكرة بينيّة محضة تتزاوج وتتفاعل فيها كل هذه التّراكمات المعرفيّة: المجتمع، الثّقافة والنّفس البشريّة.

خاتمة:

إنّ للفكر البيني جذورا ضاربة في تاريخ الفكر العربي والأدبي عند علماء العربيّة الذين نظروا إلى قضايا اللّغة في سياق الفهم العالمي للمعرفة، وبرهنوا على نقاط القوّة الكامنة في اللّغة العربية والقادرة على الإسهام في إنتاج الفكر البيني العالمي. و يمكن الإشارة الى أهم النتائج عن الدراسة البينية و أهم اسهامات العرب فيها فيما يلي:

ـ ما يثبت هذه الفكرة و هي الفكرة البينية مصنّفات علماء العربيّة التي جمعت بين الدّرس الأدبي وأحد المناهج الإنسانيّة والاجتماعيّة التي تتناول الظّاهرة الأدبيّة من وجهة نظر علم من العلوم الإنسانيّة.

ـ دون أن ننسى ما ظهر في ذلك التّفاعل الواضح بين الطّب والأدب أو بين الفلسفة والأدب، أو بين الأجناس الأدبية المختلفة و باقي العلوم الأخرى أو باختصار التّفاعل بين مختلف الأجناس الأدبيّة والعلوم الأخرى.

ـ هؤلاء العلماء العرب قد أسهموا في بناء الفكر البيني قديما، بدا ذلك جليا فيما تركه هؤلاء من مصنفات وإدراكهم أنه لا يتوصل العالم الى مبتغاه الا إذا تعلم ما لا يحتاج اليه و هي الفكرة التي ذكرها الخليل منذ ألاف السنين و سار على دربه من جاء بعده.

هوامش وإحالات المقال

[1]- فتحي حسن ملكاوي،- منهجية التكامل المعرفي، مقدمات في المنهجية آلإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن، ط 01، 2011، ص 59.
2011، 59.

[2]- جهاد حسن كاظم، البينية نشأتها و دلالتها، مجلة جامعة الملك سعود للآداب، الرياض، مج 25، ع 2013، ص 80.

[3]- المصدر نفسه، ص 82.

[4]- أمين عمار بن عبد المنعم، 2012، الدراسات البينية رؤية لتطوير التعليم الجامعي، الندوة السعودية الأولى لعلوم الأرض، جامعة الملك عبد العزيز، السعودية، ص 02.

[5]- محمد راضية آدم، حسام الدين عوض، 2013، فلسفة التغيير والتنوير في علوم المعلومات، المؤتمر 24 للاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات، المدينة المنوّرة، السعودية، 25- 28 نوفمبر، ص 69.
، 2013، ص 69.

[6]- مراد عبد الفتاح، 1995، موسوعة البحث العلمي وإعداد الرسائل والأبحاث والمؤلفات، دار الفكر والقانون، مصر، ص 169.

[7]- ينظر المرجع نفسه،، ص 181.

[8]- نور الدين بن خود، - دليل الدراسات البينية العربية في اللغة والأدب والإنسانيات، مركز دراسات اللغة العربية وآدابها، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص 16.
ص 16.

[9]- ينظر: المرجع نفسه، ص 17.

[10]- أمين عمار عبد المنعم، 2012، الدراسات البينية رؤية لتطوير التعليم الجامعي ، ص 03.
ص 03.

[11]- محمد راضية آدم، حسام الدين عوض، فلسفة التغيير والتنوير في علوم المعلومات ، ص 694.
ص 697.

[12]- أحمد أبو الحمائل، رؤى استشراقية لمستقبل التخصصات البينية للدراسات العليا الجامعية في عصر المعلوماتية، 2013، Kauedusawww 2013، ص 89.

[13]- بلانشير روبير، 2014، نظرية المعرفة العلمية، تعر: حسن عبد الحميد، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 141.

[14]- مرزوق العمري، تصنيف العلوم عند المسلمين، مجلة الجامعة الأسمرية، ع16، دت ،ص 218.

[15]- - المرجع نفسه ، ص298..

[16]- ابن قتيبة، أدب الكاتب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، 1983، ص 08.

[17]- ابن بطلان، دعوة الأطباء، تح: فاطمة الأخضر، منشورات حنبعل، تونس، 2009، ص 16.

[18]- الجاحظ، 1991، الرسائل، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ج ، ص 96.

[19]- الجاحظ، الحيوان، 1424هـ، ، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص11.

[20]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[21]- عبد القاهر الجرجاني،1983، أسرار البلاغة في علم البيان، تح: عبد الحميد هنداوي،ط3، دار المسيرة، بيروت، ص 03.